الرومانسية في الفكر الاقتصادي(*)

الباحث: باور أحمد حاجي
(طالب دكتوراه)
جامعة الموصل
كلية الإدارة والاقتصاد
Duhokbawer1980@gmail.com

ISSN 2709-6475 DOI: https://dx.doi.org/10.37940/BEJAR.2023.4.5.8

تأريخ استلام البحث ٢٠٢٢/١٠/٨ تأريخ قبول النشر ٢٠٢٢/١٠/٢٥ تأريخ النشر ٢٠٢٣/٥/٣٠

المستخلص

يمثل موضوع دراسة اليوتوبيا موضوعاً اقتصادياً خصباً ويعد ذو أهمية بالغة في الفكر الاقتصادي، لكونه يبرز علاقة الإنسان بالنظام الذي يحكم مجتمعه، ومن هنا تبرز مشكلة البحث في إمكانية تحقيق اليوتوبيا في أرض الواقع بجعل الخيال ممكناً، وتهدف الدراسة إلى تعقب اليوتوبيا بإعتبارها نظاماً بديلاً للأنظمة التي كانت تحكم هذه البلدان؛ والتي كانت من سماتها الظلم والاستبداد، فهي محاولة لإيجاد نظام جديد يقوم على المبادئ المثالية الخيالية، ولأجل الوقوف على طبيعة اليوتوبيا وأفكار الاقتصاديين الرومانسيين وتكوين نظرة شاملة عنها؛ لتكون عنواناً للباحثين الاقتصاديين، واعتمد البحث على المنهج الإستقرائي أو دراسة الجزء للوصول إلى الكل، عن طريق ملاحظة ظاهرة ما؛ للخروج بنظرية مثبتة حول تلك الظاهرة.

ونستنتج من هذه الدراسة بأن اليوتوبيا عبر تاريخها تجلت في أشكال عديدة؛ اتخذت الطابع الديني أحياناً والطابع الفلسفي أحياناً أخرى، وصيغت في قوالب أدبية تارة وفي قوالب علمية باسم روايات الخيال العلمي تارة أخرى، ولكن القاسم المشترك بين جميع هذه اليوتوبيات هي أنها تمتاز بنمط من التنظيم الإجتماعي دون ملكية خاصة، وتناهض نظام الإستغلال والإضطهاد. كما توصلت الدراسة إلى أن الأفكار الرومانسية للاقتصاديين هي بمثابة طوق نجاة من الظلم والاستبداد والقهر الذي عاشته مجتمعاتهم؛ رغم مثاليتها واستحالة تطبيقها في الواقع، إلاّ أنها تبقى مسعاً للإنسانية نحو الكمال وتحقيق الفردوس الأرضي.

الكلمات المفتاحية: الاقتصاد، الفكر الاقتصادي، اليوتوبيا، الرومانسية الاقتصادية، الشيوعية، الاشتراكية، عدالة التوزيع.

مجلة اقتصاديات الأعمال
المجلد (٤) العدد (٥) ٢٠٢٣
الصفحات: ١٤٣-١٥٨

(*) البحث مستل من أطروحة دكتوراه.

Romanticism in Economic thought

Abstract

The subject of the study of utopia represents a fertile economic subject and is of great importance in economic thought, because it highlights the relationship of man with the system that governs his society, and from here the problem of research in the possibility of achieving utopia in reality by making imagination possible, and the study aims to track utopia as an alternative system to the systems that She ruled these countries; which was characterized by oppression and tyranny, it was an attempt to find a new system based on imaginary ideal principles, and in order to identify the nature of utopia and the ideas of romantic economists and to form a comprehensive view of it; To be a title for economic researchers, the research relied on the inductive method or the study of the part to reach the whole, by observing a phenomenon; To come up with a proven theory about this phenomenon.

We conclude from this study that utopia throughout its history has manifested itself in many forms; It took the religious character at times and the philosophical character at other times, and was formulated in literary forms sometimes and in scientific forms in the name of science fiction novels at other times, but the common denominator among all these utopias is that they are characterized by a pattern of social organization without private ownership, and they oppose the system of exploitation and oppression. The study also found that the romantic ideas of economists are a lifeline from the injustice, tyranny and oppression experienced by their societies; Despite its idealism and the impossibility of its application in reality, it remains humanity's pursuit of perfection and the realization of the earthly paradise.

Key words: Economics, Economic Thought, Utopia, Economic Romance, Communism, Socialism, Distributive Justice.

المقدمة:

عندما يضيق الانسان ذرعاً بالظروف المحيطة به، فإنه يسترسل في أحلامه لكي يقدم صورة لعالم فردوسي تختفي منه شرور عالم الواقع، وتحقق فيه أحلامه بالعدل والسعادة، هذه الصورة تمثل النظام الخيالي الذي يحقق هذه التطلعات في مكان ما على هذه الأرض، وهذه الفكرة راودت خيال الإنسان من قديم الزمان، وتناولها الفلاسفة والمفكرون وقدموا لها صوراً مختلفة اتخذت الطابع الديني أحياناً والطابع الفلسفي أحياناً أخرى، وصيغت في قالب الحوار تارة وفي قالب القصة الخيالية تارة أخرى.

وفي رحلتنا مع الرومانسية الاقتصادية سنجد أن الملكية الخاصة تُدان بشدة، وأن النقود والأجور تعد غير أخلاقية وغير عقلانية، وكل هذه الأفكار التي يمكن عدَّها اليوم أفكاراً جريئة قد طرحها أصحابها بثقة كبيرة لكي يقولوا: بأن العصر الذهبي للإنسانية لم يكن أبداً وراء ظهورنا، وإنما هو ماثل أمامنا، ماثلٌ في تحسين الوضع الإجتماعي، فآباؤنا لم ينعموا به قط، ولكن أطفالنا سوف يسعدون به يوماً ما، ويقع على عاتقنا نحن، وعلينا أن نمهد لهم الطريق حتى وان كان عبر جسر خيالي قد يكتب له النجاح في أرض الواقع.

١. مشكلة البحث:

بالعودة إلى المسار الذي تشكلت على وفقه أفكار الرومانسيين الاقتصاديين، تبيّن أن المشكلة الحقيقية التي نحن بصددها تكمن في إمكانية تحقيق اليوتوبيا؛ والتي هي مجرد أرض للأحلام أو صورة خيالية (لا مكان) تمتاز بالثبات، بجعلها تتحقق في عالم المتغيرات أو ما نسميه بـ (الواقع) أو الوجود.

٢. أهمية البحث:

تناول الاقتصاديون الرومانسيون بالبحث والدراسة إمكانية تطبيق فكرة اليوتوبيا على أرض الواقع، فظهرت مؤلفات وأبحاث مختلفة، موجهين الأنظار لِما يمر به البلاد الرأسمالية من شقاءٍ وفقر؛ التي هي من وجهة نظرهم نتيجة حتمية للملكية الخاصة، فقدموا من أجل تطبيق اليوتوبيا أفكاراً عظيمة وصرفوا من أموالهم الخاصة الكثير، فتكمن أهمية هذه الدراسة في التعرف على ما قدموه وما مرو به من صعاب لجعل الخيال واقعاً.

٣. فرضية البحث:

تعد اليوتوبيا فكرة مثالية؛ حاول الكثير من الفلاسفة والمفكرون عبر التاريخ تحويلها إلى واقع، وذلك من خلال وضع نمط من التنظيم الإجتماعي دون ملكية خاصة، لذلك **نفترض بأن إمكانية تحقيق هذه الفكرة على أرض صلبة هي مجرد خيال داعبت كبار العقول**، لاسيما واننا نعلم أن (الملكية المشاعة) هي من السمات البارزة للمجتمعات البدائية التي كانت اعتمادها على نشاط واحد أو على مجموعة من النشاطات المترابطة بعضها ببعض كالمجع والإلتقاط والصيد والرعي والزراعة البدائية.

٤. منهجية البحث:

اعتمد الباحث في دراسته على المنهج الإستقرائي الذي يعتمد على الوصف من الجزء إلى الكل للوصول إلى إستنتاجات معينة، عن طريق ملاحظة ظاهرة أو سلوك ما ويقرر تتبعه ودراسته

بجميع تفاصيله، ليخرج بنظرية مثبتة حول تلك الظاهرة ويقدم المفكر الاقتصادي نظرة مثالية تمثل يوتوبيا اقتصادية.

٥. خطة البحث:

تضم الورقة البحثية مبحثين أساسيين: في المبحث الأول تم مناقشة الحياة المثالية في المدينة الفاضلة، وذلك عبر أربعة فروع: الفرع الأول لمناقشة جمهورية أفلاطون، والثاني لدراسة المدينة الفاضلة عند الفارابي، والثالث لإلقاء الضوء على أفكار توماس مور من خلال كتابه المسمى (يوتوبيا)، والفرع الرابع تم استعراض أفكار جلّ من المفكريين اليوتوبيين آخرين تحت عنوان (**استمرار أحلام اليوتوبيين**)، أما المبحث الثاني فكانت تحت عنوان: الطوباويون الاقتصاديون الكبار، من خلال ثلاثة فروع، تم تخصيص الفرع الأول لمناقشة أفكار سان سيمون، والفرع الثاني لدراسة أفكار شارل فورييه الرومانسية، والفرع الثالث تم إلقاء الضوء على أفكار روبرت أوين، وفي نهاية البحث تم تقديم استنتاجات وتوصيات.

المبحث الأول: الحياة المثالية في المدينة الفاضلة:

الفرع الأول: جمهورية أفلاطون:

إن فكرة المدينة الفاضلة لدى أفلاطون ينطوي ظاهرها على مثالية خيالية، وهذه الفكرة راودت أفلاطون حين أخفق في ممارسة السياسة عملياً ولما شهد وشهدته أثينا من أحداث حرب البيلوبونيز (٤٣١- ٤٠٤ ق.م)، فانصرف إلى الأكاديمية لإعداد جيل من السياسيين (أصحاب المعرفة الحقيقية) على حد قول أفلاطون، مهمتهم إذا ما تولوا السلطة السياسية أن يتبعوا الفلسفة عن حق وحقيقة ويصبحوا فلاسفة حقيقيين[١].

كان انطلاق أفلاطون في جمهوريته من فكرة عبارة سقراط (الفضيلة هي المعرفة)، التي تعني أن المجتمع السياسي لا يقوم بدون فضيلة، والفضيلة لا يوفرها إلاّ أصحاب المعرفة وهم الفلاسفة والعلماء، وبالتالي فليس لغير هؤلاء سلطة إدارة الحكم[٢]، إن غاية بحث أفلاطون في هذه المحاور هو تحديد صورة الدولة المثالية التي تتحقق فيها العدالة، ولكي تتحقق العدالة في الدولة فلابد أن يكون الملك فيلسوفاً أو أن تنتقل الفلسفة إلى عقول الحكام، إذ يذكر أفلاطون في كتاب (الجمهورية) على لسان سقراط حين يقول: حتى يكون الفلاسفة ملوكاً في مدنهم أو أن يمتلك ملوك وأمراء هذا العالم نفسيّة وسلطان الفلسفة، وأن يلتقي سموّ وحكمة العلوم السياسية في شخص واحد، وأن يجبر ذوو الطبائع المبتذلة الذين يتعقبون إخراج الآخرين على التنحي جانباً. إذا لم يتم كل ذلك فالمدن لن تمتلك الراحة من شرورها أبداً، ولا السلالة البشرية، كما اعتقد أنه حينها فقط ستمتلك دولتنا المثالية هذه إمكانية الحياة وترى نور النهار[٣].

ولتنفيذ تلك الفكرة فقد وضع أفلاطون منهاجاً تربوياً وتعليمياً طويل المدى لإعداد الملك الفيلسوف الذي يحوز رجاحة العقل وسلامة الطبع، ويسلك في رعيته مسلك الفضيلة والخير، وأول خطوة في سبيل ذلك هي وضع الدولة لخطة، لإنجاب أطفال أقوياء وأصحاء وذلك عن طريق اتصال رجال أقوياء بنساء صحيحات، فذلك خير ضمان لصحة النسل وسلامة بنيته العامة وصفاته الوراثية، ثم يؤخذ هؤلاء الأبناء من آبائهم ليربوا تربية جماعية، وفي فترة الطفولة الباكرة يعلم الأطفال الموسيقا والرياضة البدنية حتى يجمعوا بين رهافة الإحساس والشجاعة، وإذا ما بلغوا الثامنة عشرة من العمر توقفوا عن دراسة الموسيقا، وانقطعوا لمزاولة التمارين الرياضية لمدة

عامين، وفي سن العشرين يبدؤون في دراسة بعض العلوم غير التجريبية، مثل الحساب والهندسة والفلك، وتوجيههم نحو تفسير الكون والوجود تفسيراً رياضياً منطقياً، وفي المرحلة التعليمية الثالثة التي تبدأ بسن الثلاثين، يواصل الطلاب ممن أثبتوا تفوقهم برنامجاً تعليمياً جديداً، ويعزل عنهم بقية الطلاب ليكونوا مجرد حراس للدولة، وفي برنامج المرحلة الثالثة الذي يدوم لخمسة أعوام يتعمق الطلاب في دراسة الفلسفة والجدل ويتمرسون على نظرية المثل، وفيما بين الثلاثين والخمسين من العمر توكل لهؤلاء الشباب بعض المهام الرئيسية في إدارة الدولة والجيش، وبهذا يكتمل البرنامج الدراسي والتدريسي الطويل ويصبح هؤلاء الطلاب فلاسفة حقاً وحكاماً صالحين يتناوبون أداء مهام القيادة السياسية، وأكبر واجب يناط بهؤلاء الحكام الفلاسفة هو تحقيق مبدأ العدالة في الدولة[٤].

تناول أفلاطون بعض المشاكل الاقتصادية في كتاباته (الجمهورية والقوانين)، إذ كان يرى أن نشأة الدولة السياسية ترجع إلى اعتبارات اقتصادية وقد بين بأنه (تنبثق الدولة كما أتصور من حاجات الجنس البشري، لا أحد يمكنه البقاء بنفسه، بل كلنا لدينا عدة متطلبات. وبما أننا نمتلك عدة احتياجات إذن فسنحتاج لأشخاص عديدين لإمدادنا بها. يؤخذ واحد كمساعد لغرض ما، وآخر لغرض آخر، وعندما يُجمع هؤلاء الشركاء والمساعدون في مسكن موحّد معاً، سندعو هذا الجسم المأهول دولة)[٥]، ودعا في كتابه (الجمهورية) إلى إقامة مدينة مثالية قائمة على تقسيم العمل والإختصاصات والمزايا بين طبقات المجتمع، وهنا تكون للنقود دوراً مهماً في مدينته، فعندما يتم تقسيم العمل وتخصصص كل فرد بحرفة معينة يظهر لديهم فائض الإنتاج المتبادل، فإن كل شخص سيعرض إنتاجه على الآخرين ليبعه لهم، فتقوم النقود هنا بوظيفة (أداة للتبادل)[٦]، وينسب شومبيتر إلى أفلاطون أنه قد أخذ بنظرية تقول: (إن قبول النقود في المعاملات لا يرجع إلى قيمة المادة التي تُكّون تلك النقود المصنوعة منها، ولكن إلى اتفاق الناس وجريانهم على استخدامها كوسيط للمبادلة)[٧]، وهي حالة من التوازن تبعد التأزمات في العرض والطلب.

الفرع الثاني: المدينة الفاضلة عند الفارابي:

قدّم الفارابي أيضاً أفكاراً حول المدينة الفاضلة في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها) الذي يرى أن الكمال والفضيلة لا يتحققان في الجماعات التي تقل عن المدينة، إذ يقول: الخير الأفضل والكمال الأقصى، إنما ينال أولاً بالمدينة لا بإجتماع الذي هو أنقص منها، ولما كان بلوغ الخير أو الشر يتم عن طريق الاختيار والإرادة، أمكن للمدينة أن تتعاون على بلوغ بعض الغايات التي هي شرور، لكنها تستطيع من ناحية أخرى أن تتعاون لنيل السعادة[٨]، وذلك يعني أن السعادة التي هي الخير الأقصى هي الهدف المنشود من الاجتماع البشري على مستوى المدينة أو الأمة أو المعمورة، والتجمع الذي يحققها هو تجمع فاضل، والمدينة التي يقول الفارابي بتأسيسها هي مدينة فاضلة لأنها تحقق هذا الهدف الأخلاقي ألا وهو بلوغ السعادة[٩]، والملاحظ في ذلك كله أن الفارابي لا يفصل قط بين الأخلاق والسياسة، بل هو يدمجهما في هوية واحدة.

أما رئيس المدينة الفاضلة فهو أكمل الأفراد فيما يختص به من صفات، أما الصفات التي يشترك بها مع آخرين فهو يمتلك أفضلها. وهو يرأس قوماً آخرين وهؤلاء يرأسون غيرهم بنفس الوقت، فنظام المدينة نظام هرمي متدرج سواء على صعيد الطبقات الاجتماعية أم على صعيد القوى الحاكمة في الدولة[١٠].

ويذكر الفارابي أيضاً: أن الرئيس الحقيقي هو رئيس الأمة الفاضلة، ولا يجوز أن يكون فوقه رئيس أصلاً، بل هو فوق الجميع وليس في وسع كل إنسان أن يكون رئيساً لأن الرئاسة لا وجود لها

في كل شخص، وإنما يكون الرئيس إنساناً قد استكمل جميع الصفات الحسنة فصار عقلاً ومعقولاً بالفعل، وتكون القوة المتخيلة قد استكملت عنده بالطبع حتى صارت قادرة في اليقظة أو في وقت النوم، أن تقبل الجزئيات عن العقل الفعال. فالإنسان الذي حل فيه العقل الفعال هو الذي يصلح للرئاسة، فيفيض عليه ما يفيض من الله على العقل الفعال[١١].

المدينة الفاضلة كما يقول الفارابي ليس يمكن أن يكون أي إنسان اتفق، لأن الرئاسة إنما تكون بشيئين: أحدهما أن يكون بالفطرة والطبع معداً لها، والثاني بالهيئة والملكة الإرادية. فالفارابي يعول بشكل كبير على الرئيس الفاضل في إيجاد مدينته، ورغم أن وجود الأفراد الفاضلين ضرورة لوجود المدينة الفاضلة، فإن هذا الرئيس لا ينتخب من بين هؤلاء بل يوجد هو أولاً فيكون وجوده سبباً لحصول المدينة وأفرادها[١٢].

الفرع الثالث: يوتوبيا توماس مور :

وصف توماس مور الفيلسوف الإنجليزي (١٤٧٨-١٥٣٥م) في كتابه (يوتوبيا) الحياة المثالية في المدينة الفاضلة، ولذلك يكاد يكون هذا الكتاب الأول من سلسلة الأعمال الأدبية الفكرية التي تقدم صورة متكاملة لعالم مثالي، وذلك في قالب روائي جذاب، فلم يركن مور إلى تقديم أفكار مجردة أو عرض نظري لِما يجب أن تكون عليه الدولة المثلى كما فعل أفلاطون في جمهوريته مثلاً، بل قدم صورة أدبية لجزيرة مثالية أدعى أنها حقيقة واقعة صادفها الروائي أثناء رحلاته وتركت في نفسه أثراً قوياً، فنقل صورة مفصلة لها وربط بينها وبين عالم الواقع عن طريق الموازنة وإبراز أوجه الشبه والخلاف، ومن ناحية الأخرى يتضح إرتباط يوتوبيا بعالم الواقع بما تحمله من آثار العصر الذي كتبت فيه وما تعكسه من صفات صاحبها وإهتماماته، فكما قدم لنا مور صورة براقة لدولته المثلى، قدم لنا صورة قاتمة لمساوئ العصر الذي عاش فيه، وشخّص عيوب نظام الحكم والحياة الإجتماعية فيه تشخيصاً بارعاً، وأبرز بلمسات إنسانية رائعة ما في ذلك العصر من صور الظلم والقهر والإستبداد[١٣].

وفي يوتوبيا مور كما في جمهورية أفلاطون، الأشياء كلها ملكها مشاع، وذلك لأن الخير العام لا يزدهر حيثما تكون ملكية خاصة، وبدون الشيوعية لا يمكن أن تكون مساواة، ويعترض مور في الحوار بأن الشيوعية قد تجعل الناس خاملين وتهدم إحترام الحكام، وعلى هذا يرد (رافائيل) بألاّ أحد يعيش في اليوتوبيا يمكن أن يقول هذا. وفي اليوتوبيا أربع وخمسون مدينة كلها بتصميم واحد بإستثناء واحدة وهي العاصمة، وفي الريف هناك المزارع كل منها تستوعب أربعين شخصاً على الأقل، بما في ذلك رجلين من الرقيق، وكل مزرعة تحت حكم سيد أو سيدة مسن وحكيم، ولا يحضن الدجاج البيض لفقس الكتاكيت، وإنما يتم ذلك في الجهاز الخاص، والكل يلبس لباساً واحداً بإستثناء الإختلاف بين لباس الرجال ولباس النساء والمتزوجين وغير المتزوجين، ولا تتغير الأزياء ألبتة وليس هناك إختلاف بين ما يلبس صيفاً وما يلبس شتاء، فحين ينهون العمل يضعون عباءة صوفية على ملابس العمل، وهذه العباءات كلها واحد، ولونها هو اللون الطبيعي للصوف، وكل أسرة تصنع ملابسها.

وكل شخص رجالاً ونساءً على حد سواء يعمل ست ساعات في اليوم، ثلاثاً قبل الغداء وثلاثاً بعده، والكل يذهب إلى الفراش في الثامنة والكل ينام ثماني ساعات، وفي الصباح الباكر تلقى دروس يؤمها حشد كبير وإن لم تكن إجبارية، وبعد العشاء تخصص ساعة للعب فست ساعات عمل تكفي، لأنه ليس هنالك خاملون، وليس هنالك عمل عديم الجدوى، فعندنا يُقال أن النساء والقس

والأغنياء والخدم والشحاذين، يكادون لا يؤدون عملاً مفيداً، وبسبب وجود الأغنياء فهناك جهد كبير يبذل في إنتاج وسائل ترف غير الضرورية، كل هذا يتجنب في (اليوتوبيا)، وأحياناً يلاحظ أن ثمة فائضاً ويصرّح الحكام بيوم عمل أقصر لفترة زمنية معينة[١٤].

وانتهى مور إلى القول بأنه يستحيل على الناس الحصول على المساواة والسعادة ما دامت الملكية الخاصة لا تزال قائمة، وما دامت تحتكر الأموال فئة قليلة من الناس، في حين أن الفقر يعض بأنيابه الضروس جماهير الشعب، وليس في عالمه الخيالي وجود لِما نسميه بالملكية الخاصة للأشياء أو النقود، كما يدار الإنتاج جماعياً[١٥].

الفرع الرابع: استمرار أحلام اليوتوبيين:

وكانت المحاولة الأخرى لوضع نمط من التنظيم الإجتماعي دون الملكية الخاصة، هي المحاولة التي قام بها توماسو كامبانيللا (١٥٦٨-١٦٣٩م) المفكر الإيطالي في كتابه (مدينة الشمس) الذي صدر في أوائل القرن السابع عشر، ويدور الحوار في (مدينة الشمس) بين الفارس هوسبيتالر وقبطان سفينة من جنوا، يصف المدينة المثالية التي زارها خلال إحدى رحلاته، ويعبر الفارس عن رغبته في معرفة نظام الحكم في المدينة، ويبين بأن لديهم أمير مقدس يساعده ثلاثة أمراء من رتب متساوية وهم: بون، وسين، ومور، وتعني أسماؤهم القوة والمعرفة والحب، وبون مسؤول عن كل الأمور المتصلة بالحرب والسلام والفنون العسكرية، وسين مسؤول عن جميع العلوم وعن الأساتذة المتخصصين في الفنون الحرة، ومور هو المسؤول عن الإنجاب، ويعتني مور أيضاً بتعليم الأطفال وبالأدوية والعقاقير والزراعة وجميع محاصيل الفواكه والحبوب والأعشاب وكل ما يتعلق بالغذاء[١٦].

كما نشر فالنتين أندريا (١٥٨٦-١٦٥٤م) الباحث والعالم الإنساني الألماني في عام ١٦١٩م (مدينة المسيحيين)، وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر قدّم جبرييل دي فوانبيي (١٦٣٠-١٦٩٢م) كتابه (اكتشاف جديد للأرض الأسترالية المجهولة) وهي عن شاب فرنسي اسمه (جيمس ساندير) تحطمت سفينته وألقى به البحر إلى هذه الجزيرة، وهو يقدم وصفاً دقيقاً لأخلاق ذلك الشعب وعاداته ودينه وقوانينه وحروبه، كما قدم دنيس ديدرو (١٧١٣-١٧٨٤م) من خلال كتابه (ملحق رحلة بوجانفيي) وهو وصف للعادات التي يرويها بوجانفيي وأصدقاءه عندما زارو الجزيرة التاهيتي، وهي رحلة وجة الإتهام فيها إلى الحضارة التي تستند إلى قوة الدين والسلاح، وقدم ايتيين (١٧٨٨- ١٨٥٦م) كتابه بشكل روائي (رحلة إلى إيكاريا) إلاّ أنه في الحقيقة رسالة في الفلسفة والأخلاق والاقتصاد السياسي والاجتماعي، ووصف كتابه بأنه إنجيل الشيوعية[١٧].

وكتب وليم موريس (١٨٣٤-١٨٩٦م) روايته (أنباء من لا مكان) رسم ملامح مجتمع اشتراكي شعبي، وجعل من العمل في هذا المجتمع متعة ولذة، إذ كان يقصد بالعمل الحرفة الفنية وليس العمل الصناعي التي هي نزعة غير طبيعية يدمر الجمال والسعادة الإنسانية[١٨].

واستمرت أحلام المثاليين في آواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، وتنوعت ما بين يوتوبيات علمية تفاءلت بالمستقبل ورأت إمكانية التغلب على الموت والمرض والجهل والفقر بأساليب علمية متطورة، وبين يوتوبيات أخرى رسمت صورة قاتمة عن المستقبل وتنبأت بكوارث التطور العلمي وتدمير بيئة الإنسان، ومن أشهر هذه اليوتوبيات رواية (العالم الطريف) للكاتب الإنجليزي أولدس هكسلي (١٨٩٤-١٩١٩م) الذي تخيل بأن الإنسان سوف يتناسل في المستقبل لا

عن طريق الحب والإلتقاء الرجل بالمرأة، ولكن عن طريق العلم وتكوين الأطفال بطريقة علمية داخل القوارير (أطفال الأنابيب)[١٩].

المبحث الثاني: الطوباويون الاقتصاديون الكبار:

ذكر انجلز بأن النظرية التي بشر بها زميله ماركس (الاشتراكية العلمية) إنما تبني على الدعائم التي أرساها سان سيمون وفورييه وأوين، أولئك الرجال الثلاثة الذين يعتبرون من بين رواد الفكر العظام عبر القرون جميعها، الذين تفتقت عبقرياتهم عن تخيل كثير من الأشياء. ولطالما أشاد ماركس وانجلز ولينين بالنتائج التي تخيلها الاشتراكيون الطوباويون العظام، مثل إلغاء الفروق بين المدينة والقرية، وأن يكون الأجر على قدر العمل، وجعل الدولة مجرد إدارة للإنتاج، وجعل العمل وظيفة خلاقة وحاجة ضرورية للإنسان[٢٠].

وقد عرّف إنجلز (الاشتراكية الخيالية) من خلال مواجهتها بالاشتراكية العلمية، للإشارة إلى أفكار اشتراكيته تتميز بأنها: لا ترتبط بحركة جماهيرية فعلية، وبأنها غير مؤسسة على أي برهان حول وجود قوى اقتصادية بارزة من شأنها تحقيق تلك الأفكار[٢١]، ويرى شومبيتر بأن الاشتراكية الخيالية هي اشتراكية فوق علمية لأنها لا ترتبط نفسها بتحليل نقدي أساساً كما تفعل الماركسية، بل بخطط محددة ووسائل لتحقيق هذه الخطط، فضلاً عن ذلك فإن هذه الاشتراكية غير علمية لأن هذه الخطط تتضمن فرضيات عن السلوك الإنساني وإمكانات إدارية وتكنولوجية لا تصمد أمام التحليل العلمي لحظة واحدة، وعليه فإن ماركس كان على حق تام حين كان يحاربهم دون هوادة، ذلك لأنه أدرك أنهم يسيئون إلى الاشتراكية الحقيقية، وقد نجحوا فعلاً بحلول عام ١٨٤٠م في تحمل كلمة الاشتراكية نفسها معنى غريباً يساعد على تفسير الموقف منها الذي كان موقفاً خاصاً بالاقتصاديين الفرنسيين: فقد حدث بالنسبة لهؤلاء الأخيرين وليس دون سبب أن أصبحت الاشتراكية تعني شيئين مختلفين هما العنف والهراء، وقد كانت بعض الأفكار الطوبائية من وجهة نظر شومبيتر ليس لها قيمة حقاً، وهراء مرضي في حالات عدة، بحيث يصعب التعامل معها بصورة جدية تماماً[٢٢].

الفرع الأول: سان سيمون:

يمكن اعتبار سان سيمون أول اشتراكي فرنسي ونبي العصر الصناعي البازغ الذي كان على مفترق عصرين، وقد قال عن نفسه: بأنه الشاهد لحقبة تحوّل. ولد من اسرة أرستقراطية تدعى أنها من نسب شارلمان في عام ١٧٦٠م ونشأ على وعي بنبل أصله وبأهمية الإبقاء على لمعان اسمه إذ كان وهو شاب يستيقظ كل صباح على صوت خادمه الخاص يصرخ: إنهض سيدي الكونت فأمامك أعمال عظيمة تؤديها اليوم. إن معرفة الإنسان بأنه الأداة التي وقع عليها إختيار التاريخ يمكن أن تسبب أشياء غريبة له، فهو يذكر كيف هبط عليه الوحي الذي كان ينتظره طيلة حياته في صورة حلم، ويصف لنا سان سيمون الأمر فيقول: خلال أقسى فترة من فترات الثورة، وفي ليلة وأنا نزيل في سجن لوكسمبورج، ظهر لي شارلمان وقال: منذ أن بدأ العالم لم تحظ أسرة بشرف إنجاب بطل وفيلسوف من الصف الأول، وهذا الشرف كان محتفظاً به لبيتي يابني، إن النجاحات التي تحققها كفيلسوف سوف تعادل تلك التي أحرزتها أنا كمحارب وسياسي.

ولم يطلب سان سيمون أكثر من هذا، فتمكن من أن يجعل السلطات تطلق سراحه وراح يبدد المال الذي جمعه من قبل على سعي خيالي وراء المعرفة، أخذ هذا الرجل بالفعل يعمل على الإلمام بكل شيء، فأخذ يدعو إلى داره كل شخصية بارزة في فرنسا من العلماء والاقتصاديين والفلاسفة

والسياسين، ويمول العمل الذي يقوم به، وكان يتساءل بصورة لا نهاية لها عما إذا كان في إمكانه أن يحيط بكل ما في العالم من معرفة، كان ذلك محاولة غريبة وشاذة منه، فالبحث عن المعرفة الموسوعية التي تضم كل شيء، وإن كان منشطاً للذهن كان ينطوي على خسارة فادحة من الناحية المالية، كان ينفق في إسراف وصل إلى حد التهور، وقد هبطت أحواله المالية، ثم تحولت بعد ذلك إلى فاقة حقيقية واضطر إلى البحث عن عمل كتابي ثم الاعتماد على العطف من جانب أحد خدمه القدامى للحصول على الغذاء والمأوى، وفي عام ١٨٢٣م، وعلى الرغم من أن أسرته منحته معاشاً صغيراً أطلق الرصاص على نفسه، ولكنه لم يستطع أبداً أن يفعل شيئاً كما أراده تماماً، ولهذا لم ينجح إلاّ في إصابة إحدى عينيه، وامتد به العمر سنتان عاشهما في مرض وفقر، مؤمناً بفكرته ونفسه مليئة بالكبرياء، وحين جاءت النهاية جمع حوله حواريه وقال لهم: تذكروا أن على المرء أن يكون متحمساً إذا أراد عمل الأشياء العظيمة[٢٣]، وقال أيضاً: بالرغم من أن حياتي سلسلة من الصدمات، فإنني لم أيأس قط، لأنني مهما هبطت فإن الموج يرفعني مرة أخرى، فلم يحدث أن أدى بي الفشل مرة إلى السقوط في الهاوية، قد أهبط أحياناً ولكن قوتي الدافعة تحملني دائماً إلى أعلى مهما كانت العقبات[٢٤].

في عام ١٨٠٣م نشر سان سيمون أول أعماله بعنوان (رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه) انتقد فيه ما تمخض فيه نتائج الثورة الفرنسية، وفي نفس الإتجاه نشر سيمون كتابه (إعادة تنظيم المجتمع الأوروبي) في العام ١٨١٤م الذي دعا فيه إلى إنشاء برلمانات في كل العالم، ودعا إلى إنشاء برلمان أوروبي مشترك.

وفي العام ١٨١٩م نشر سيمون نصاً يقول فيه: ان غير المنتجين لا ينفعون المجتمع ويجب القضاء عليهم، وكان قصد سيمون من غير المنتجين هم: أمراء البلاط وأمراء الكنيسة والضباط والقضاة، أما المنتجون الذين تحتاجهم الأمة فهم الشغيلة البسطاء، شغيلة الحقل والمصنع والمشغل. وقد كتب في العامين ١٨٢٣-١٨٢٤م مؤلفاً من أربعة أجزاء بعنوان (كتاب العقيدة للصناعيين) والذي نلمس فيه تأثير أوغيست كونت على سان سيمون في نظره هذا الأخير إلى الدين[٢٥]، ويرى سان سيمون أن طبقة الصناع يجب أن تحتل الصف الأول، لأنها أكثر الطبقات أهمية، ولأنها تعتمد على قواها الذاتية وأعمالها الخاصة في تدعيم كيانها، بل إنه يذهب إلى حد القول بأن الطبقات الأخرى يجب أن تعمل لصالح الطبقة الصانعة، لأن هذه الطبقات جميعها وليدة الطبقة الصانعة، وفي عبارة واحدة يقول سان سيمون: ما دام كل شيء يعمل بواسطة الصناعة، فإن كل شيء يجب أن يكون من أجلها. ومع ذلك فإن الطبقة الصانعة لم تصل بعد إلى مكانتها الحقيقية في المجتمع[٢٦]، وكان سيمون يسعى إلى إقامة مجتمع صناعي يتولى الحكم فيها رجال الصناعة بدلاً من رجال السياسية ورجال الدين، فالسياسة من وجهة نظره هي علم وضيع، بينما الصناعة هي حجر الزاوية في سعادة الإنسانية، وكان يرى أن العمل هو الوسيلة الوحيدة التي تؤدي بالإنسان إلى التحرر والإستقلال الذاتي.

ويتكون مجتمع سان سيمون اليوتوبي من العلماء ورجال الصناعة والفنانين، وفيما عدا هذه الفئات الثلاث لا يوجد إلاّ المتسلطون والطفيليون، وتمثل هذه الفئات الثلاث المثل الأعلى لنظام الحكم في برلمان مؤلف من ثلاثة مجالس: مجلس الإختراع ويتكون من الفنانين، ومجلس الفحص من العلماء، ومجلس التنفيذ من رجال الصناعة[٢٧].

في جميع مؤلفات سان سيمون نجد أن هناك فكرة سائدة وهي ضرورة قيام نوع من الحكم الديكتاتوري الذي يكفل القضاء على النظام الإقطاعي الديني، وقد رسم خطة واضحة لتنفيذ ذلك

تتلخص في ستة أوامر: الأمر الأول والثاني: يقضيان بتكليف المعهد العلمي بإعداد تعاليم قومية لتعليم جميع أبناء الأمة، في حدود عشرين مليوناً من الفرنكات سنوياً. والأمر الثالث يقضي بإنشاء مجلس استشاري صناعي لإعداد ميزانية عام ١٨٢٢م. والأمر الرابع يلغي ألقاب النبلاء. والأمر الخامس يخفض الجيش المرتزق بإلغاء الحرس الملكي. أما الأمر السادس فيدعو مجلساً نيابياً جديداً للإنعقاد طبقاً للأمر الملكي الصادر في ٥ فبراير سنة ١٨١٧م(٢٨).

كما أكد سان سيمون في كتابه (الرسائل الأدبية والفلسفية والصناعية) بأن: العصر الذهبي الذي طالما جرى القول عموماً بأنه من ذكريات القرن الماضي، إنما يكمن في طيات المستقبل، ذلك لأن العصر الذهبي الحقيقي سيبدأ لدى تنظيم المجتمع تنظيماً يتفق مع مصالح غالبية الشعب، وأن يتلائم مع تطوير جميع ملكات ومواهب الإنسان، إذ يستحيل إشباع حاجات الأغلبية أو تنمية ملكاتهم في مجتمع تتحكم فيه المصلحة الفردية الخاصة، وأن أفضل تنظيم للمجتمع هو ذلك التنظيم الذي يجعل حياة العمال، أي حياة غالبية السكان رغيدة بقدر الإمكان(٢٩).

الفرع الثاني: شارل فوريه:

كان سان سيمون مغامراً في الحياة، أما فوريه فمغامر في الخيال، فقد ولد في عام ١٧٧٢م لتاجر من أهل بيزانسون شرق فرنسا، وتوفي والده وهو في التاسعة من عمره فربته أمه، وتعلم في مدرسة بيزانسون الثانوية، وبعد ذلك أودع عند تاجر في ليون للتمرين على الأعمال التجارية، وواصل التمرين في باريس وروان، وفي أثر ذلك عُين مستخدماً لدى تاجر كبير في ليون في سنة ١٧٩١م، وهيأ له عمله فرصة الأسفار في شتى أنحاء فرنسا، فزار مرسليا وبوردو، وخارج فرنسا فزار هولندا وألمانيا، وفي سنة ١٧٩٣م وعندما بلغ سن الرشد (٢١ عاماً) عاد إلى بيزانسون ليستلم ميراثه من أبيه ومقداره أربعون ألف فرنك، وكان أبوه قد نص في وصيته على أن يتسلم أبنه هذا المبلغ بشرط أن يعمل في التجارة.

وبعد استلامه ميراثه سافر إلى ليون وأراد أن يشتغل بتجارة خاصة به، فاشترى بالمبلغ قطناً وأرزاً وسكراً وبناً، وكان في ليون في ذلك الوقت اضطراب سياسي شديد، وكانت الطبقة الوسطى تنتسب إلى حزب الجيروندبين ولها السيادة على المدينة، بينما كان الحزب الآخر المتطرف ضعيفاً، فقامت حكومة (الميثاق) المتحكمة آنذاك في باريس بمحاصرة المدينة، وصادر أهل ليون المتاجر في المدينة ومنها متجر فوريه، للإستعانة بالبضائع في الدفاع وتموين المستشفيات والمحاربين المحاصرين، وكان هذا هو سبب خراب فوريه وإفلاسه، وهناك رواية أخرى تقول إن السبب في ضياع معظم ثروة فوريه هو غرق سفينة في ليفورنو كانت محملة ببضائع لحسابه وذلك في سنة ١٧٩٩م(٣٠).

ويرى هيلبرونر أن فوريه كان تاجراً جوالاً غير ناجح وأنه لم يفعل شيئاً بل إنه لم يتزوج، وكانت له هوايتان: الزهور والقطط، وهو لا يسترعي الإهتمام إلاّ في أواخر حياته، إذ قضى سنواته الأخيرة مواظباً على الجلوس في غرفته الصغيرة في مواعيد أعلن عنها، في إنتظار زيارة من رأسمالي كبير يعرض عليه أن يمول مشروعاته لإصلاح العالم، ومهما يكن من أمر فقد كتب هذا البائع الصغير يقول: أنا وحدي الذي أزعجت عشرين قرناً من الحماقة السياسية، وأنا وحدي الذي سوف تتطلع إليه الأجيال الحالية والمستقبلة بحثاً عن أصل تعاستهم الهائلة. وبمثل هذه المسؤولية الملقاة على عاتقه لم يكد يسعه إلاّ أن يكون في متناولي المخلص المختار الذي يصل حاملاً في القطار الذي يقله الحقائب الملأى بالمال، ولكن لم يأت أحد أبداً(٣١).

نشر فورييه أولى مقالاته في عام ١٨٠٣ عن (الإنسجام الكوني)، ونشر أول كتاب له في عام ١٨٠٨م حول (نظرية الحركات الأربعة)، ثم نشر فيما بعد عدة كتب منها: (العالم الصناعي والجماعي الجديد) وكتاب (بحث في الوحدة العالمية) وغيرهما، فقد تأثر شارل فورييه بنظريات نيوتن حول الجاذبية، فكان يسعى لإقامة نوع من التنظيم لإشباع الشهوات العاطفية، ولذلك كان يقول أن مبدأ الجاذبية لا يحكم العالم الفيزيائي فقط وإنما أيضاً يحكم الشهوات والعواطف، أما أفكاره السياسية والاجتماعية فقد تأثر بالجو الاجتماعي الذي عاش فيه، والتي كان العمال يعيشون حياة البؤس والفقر الشديد، فقد كان أجر العامل باليوم لا يزيد عن خمسة عشر سنتاً، في حين كان ثمن كيلوغرام من الخبز هو عشر سنتات[٣٢].

وأوضح فورييه أيضاً أن صغار الفلاحين الذين يعملون في الأراضي المتفرقة التي يملكونها لن يتمكنوا من الاستفادة من التقديم التكنولوجي الحديث أو من نِعم العمل في الجمعيات التعاونية، ولذلك رأى أن التقدم الإجتماعي قد أضحى مجرد رؤى خادعة، لأنه بينما كانت الطبقة الغنية تزداد ثراء كان الفقراء يتنزلون إلى حضيض الفقر، لأن ثروات الأغنياء كانت تزداد بإستمرار، في حين أن الفقر ظل يجرجر ذيوله، بل أصبح التجار الجشعون والدجالون حكام الحاكمين لأنهم استحوذوا على ثروات الإمبراطورية بأسرها، ومن ثمة إزدادت الهوة بين الأغنياء والفقراء إتساعاً، وكانت كل من الطبقتين في صراع في الواقع من الأمر، بل كانت المصالح العامة تتعارض مع المصالح الخاصة للأفراد[٣٣].

وكان العلاج الذي وصفه فورييه دقيقاً جداً، فيجب أن ينظم المجتمع فنادق تعاونية، وراح يصف الفندق بعناية فقال: أنه عبارة عن بناء مركزي كبير تقوم حوله حقول ومنشئات صناعية، وتستطيع أن تقيم بالفندق في المستوى الذي يتفق مع مواردك المالية، فهناك درجات أولى وثانية وثالثة، وفيها تستطيع أن تحتفظ بالخلوة في حياتك إذا شئت، وأن تختلط بغيرك بالقدر الذي يؤدي إلى إنتشار الثقافة، وعلى كل فرد أن يعمل بطبيعة الحال بضع ساعات كل يوم، ولكن لن يحاول أحد التهرب من العمل لأنه يقوم بالعمل الذي يفضله، وبهذا حلت مشكلة العمل القذر بالبحث عمن يود أن يؤديه[٣٤].

وهنا ينبغي أن نؤكد أن المجتمع الذي يدعو إلى ايجاده فورييه لا يشبه في شيء المجتمع الذي تدعو إليه الماركسية أو الاشتراكية بوجه عام: فهو يقر بالملكية الخاصة لأدوات الإنتاج، ويطالب بتوزيع الأرباح بين المساهمين في الإنتاج بنسبة مئوية محددة، وهؤلاء المساهمون هم الرأسماليون المساهمون في تمويل الإنتاج، والمخترعون العلميون والعمال المنفذون للأعمال، ويطالب فورييه بزيادة الإنتاج بإستمرار إبتغاء رفع مستوى المعيشة، ويفضل التفاوت في الثروات لأنه حافز على المزيد من الإنتاج ولتحسين لنوعه، فهو أفضل من المساواة في الفقر، لكنه في الوقت نفسه يدعو إلى تأمين حد أدنى من مستوى المعيشة لكل الناس على السواء، كما يشجع فورييه على بقاء حافز الربح إشباعاً لشهوة الطموح عند الإنسان، ودافعاً لزيادة الإنتاج وتحسينه، ويجب ضبط عملية الربح على نحوٍ يؤدي إلى زوال التنازع بين المصالح المتباينة للمنتجين والمستهلكين والعمال ولأرباب العمل[٣٥].

الفرع الثالث: روبرت أوين:

ولد روبرت أوين لوالدين فقيرين في ويلز عام ١٧٧١م، ثم غادر المدرسة في سن التاسعة ليعمل صبياً لدى أحد تجار قماش الكتان، وهناك في سن الثامن عشرة وبمبلغ قدره مائة جنيه

اقترضه من أخ له، أنشأ مصنعاً صغيراً لعمل المنسوجات، ولكن ما يزال المستقبل الأفضل في انتظاره، فقد حدث أن السيد درينكوتر وهو صاحب منشأة كبيرة للغزل وجد نفسه ذات صباح وقد فقد مدير مصنعه فنشر إعلاناً في صحيفة محلية يطلب شخصاً ليشغل المنصب، لم تكن لأوين دراية بمصانع الغزل ولكنه فاز بالمنصب، وقد كتب أوين بعد ذلك بنصف قرن: ارتديت قبعتي وتقدمت مباشرة إلى مكتب السيد درينكوتر الذي سألني: كم عمرك؟ فأجبت عشرون عاماً، وقال كم مرة في الأسبوع تشرب الخمر؟ فقلت لم أسكر في حياتي أبداً، وقد أحمر وجهه خجلاً من السؤال، ما المرتب الذي تطلبه؟ فكان جوابي: ثلاثمائة جنيه في العام. ماذا؟ قالها السيد درينكوتر مبدياً بعض الدهشة وكرر الكلمات ثلاثمائة جنيه في العام! لقد استقبلت هذا الصباح كثيرين لا أعرف عددهم يسعون إلى المنصب، ولا أظن أن كل ما طلبوه يصل إلى المبلغ الذي تريده. فقلت: لا يمكن أن يحكم عليّ بما يسعى إليه الآخرون، ولا أستطيع أن أقبل أقل من هذا.

كانت تلك من الحركات التي تميز بها أوين ونجحت، وفي سن العشرين أصبح أعجوبة عالم النسيج، وفي ظروف ستة أشهر عرض عليه السيد درينكوتر مصلحة قدرها الربع في المنشأة، ولكن هذا لم يكن سوى مقدمة لحياة عملية خيالية، فلم تمض سنوات قلائل حتى سمع أوين أن مجموعة من المعامل معروضة للبيع في قرية نيولانارك القذرة، ومن المصادفات أن صاحبها كان والد فتاة أحبها أوين، ولم يشعر أوين بالخوف وإنما توجه إلى السيد ديل كما فعل مع السيد درينكوتر وتحقق المستحيل، لقد اقترض المال واشترى المعامل وكسب يد الفتاة.

وفي ظرف عام واحد جعل أوين من نيولانارك مكاناً تغير شكله، وخلال خمس سنوات لم يعد في الإمكان التعرف عليه، وبعد عشر سنوات أصبح ذا شهرة عالمية، إن هذا إنجاز كان يعتبر كافياً بالنسبة إلى معظم الناس، إذ فضلاً عن إكتساب سمعة في أوربا ببعد النظر والجود، جمع روبرت أوين لنفسه ثروة قدرها (60,000) جنيه على الأقل، ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد، فعلى الرغم من ارتفاعه السريع جداً كان أوين ينظر إلى نفسه كرجل أفكار أكثر منه مجرد رجل أعمال، فنيولانارك لم تكن أبداً بالنسبة إليه تجربة فارغة في حب الإنسانية، وإنما الأحرى أنها كانت فرصة لاختبار نظريات صاغها من أجل تقدم الإنسانية بصفتها الكلية، لأن أوين كان على اقتناع بأن الجنس البشري ليس أفضل من بيئته وأنه إذا تغيرت البيئة أمكن خلق جنة على الأرض، ففي نيولانارك كان في إمكانه كما فعل أن يختبر أفكاره في معمل، وإن نجحت نجاحاً تجاوز كل حد، لهذا لم يبد أنه ثمة سبب يمنع تقديمها إلى العالم(٣٦).

اقترح أوين لحل مشكلة الفقر في جعل الفقراء منتجين، ومن أجل هذه الغاية دعا إلى تكوين قرى التعاون تضم كل منها ما بين ثمانمائة وألف ومائتي فرد يعملون سوياً في المزرعة والمصنع لتكوين وحدة تكفي نفسها بنفسها، ويقضي النظام بأن تعيش في بيوت مجمعة على هيئة متوازيات أضلاع، وهو لفظ سرعان ما استرعى اهتمام الجمهور على أن تقيم كل أسرة في شقة خاصة، بينما تستخدم حجرات الجلوس والقراءة والمطابخ بصورة مشتركة، ويقيم الأطفال الذين يتجاوزون الثالثة من العمر على انفصال حتى يمكن تعريضهم لذلك النوع من التعليم الذي يحسن تشكيل أخلاقهم لحياتهم فيما بعد، وتحاط المدرسة بحدائق يُعنى بها الأطفال الأكبر سناً قليلاً، وحول الحدائق تمتد الحقول التي كانت تزرع باستخدام المجارف وبدون استخدام المحاريث، وعلى مسافة من مناطق السكنى تقام وحدة تضم مصنعاً.

أصر أوين على تطبيق خططه في إنشاء قرية تعاونية، فأغرق البرلمان بالنشرات التي أوضح فيها أراءه، فشكلت في عام ١٨١٩م لجنة خاصة تضم دافيد ريكاردو بغرض محاولة جمع

ستة وتسعين ألف جنيه لإنشاء قرية تعاونية تجريبية كاملة، وكان ريكاردو يشك في الأمر وإن رغب في تجربة الخطة، ولكن البلاد لم تكن تشك في الفكرة على الإطلاق وإنما وجدتها مقيتة، فكتب أحد رؤساء التحرير يقول: إن السيد أوين وهو من غزالي القطن وعرف بروح الإحسان، يتصور أن البشر جميعاً نباتات كثيرة اقتلعت من الأرض لبضع آلاف من السنين وتتطلب أن يعاد غرسها، وتبعاً لهذا نراه يصمم على غرسها في مربعات وفق أسلوب جديد، إني أعتقد أن كل شخص مقتنع بكرم السيد أوين وأنه يريد تحقيق الخير الكثير وإني لأطلب منه أن يدعنا وشأننا خشية أن يسبب الكثير من الأذى[٣٧].

كان من الواضح أن هذه الآراء لم يكن يعتنقها سوى أوين وحده، فأصحاب التفكير الجاد رأوا في مشروعه تهديداً مزعجاً للنظام المستقر الثابت، إن المال اللازم لإنشاء القرية التجريبية لم يجمع أبداً، ولكن لم يكن هناك الآن ما يوقف ذلك الرجل المحب للإنسانية والذي لا يقهر، كان من المؤمنين بالإنسان فأصبح الآن رجلاً يحترف الخير للإنسان، وجمع ثروة كرسها لتحقيق أفكاره، فباع حصته في نيولانارك وراح في سنة ١٨٢٤م يبني مجتمع المستقبل الذي يدعو إليه، ومن الطبيعي أن يقع اختياره على أمريكا كبيئة يطبق فيها فكرته، فهل هناك ما هو أفضل لإنشاء اليوتوبيا من مكان وسط شعب عرف الحرية السياسية طيلة خمسين عاماً؟.

واختار موضعاً اشتراه من شيعة دينيه من الألمان تعرف باسم الرابيين ومساحته ثلاثون ألف فدان على شواطئ نهر في مقاطعة بوزى بولاية إنديانا، وفي سنة ١٨٢٦م دشن المكان بإعلان الإستقلال العقلي، أي التحرر من الملكية الخاصة، والدين المنافي للعقل والزواج، ثم ترك المكان يسير في طريقه باسمه الجميل الذي ينم عن الأماني الطيبة وهو الإنسجام الجديد. لم يكن في الإمكان أن ينجح المشروع ولم ينجح بالفعل، فبحلول عام ١٨٢٨م أصبح ظاهراً أن المشروع إنتهى بالإخفاق، فباع أوين الأرض وكان قد خسر أربعة أخماس ثروته كلها في المغامرة، وراح يتحدث عن مشروعه إلى الرئيس جاكسون ثم من بعده إلى سانتا آنا بالمكسيك ولم يبد أي من هذين الرجلين أكثر من إصغاء مهذب[٣٨].

انتقد أوين النظام البرجوازي إنتقاداً لاذعاً، ورأى أنه لدى نشر التعليم فإن كل النظام السائد والتنظيم الاجتماعي سيبدو همجياً إلى أبعد الحدود، متناقضاً بل سخيفاً، حتى انه لن يوجد أحد بعد فترة وجيزة لا يستشعر بالمعرة، ان حاول الدفاع عن استمرار مثل ذلك الركام من الخطايا والفقر واللامعقولية والعوائق التي تحول دون السعادة الإنسانية. ومما كتبه معلقاً عن الرأسمالية الانكليزية ونظام الرق الأمريكي: إن الرق الأميركي نظام فاسد وأحمق، وسوف يظل فاسداً أحمقاً ما بقي، ولكن استرقاق الرجل الأبيض للرجل الأبيض في مصانع انكلترا أفظع بكثير من عبودية العبيد في المنازل، تلك العبودية التي رأيتها فيما بعد في جزر الهند الغربية وفي الولايات المتحدة، فقد كان هؤلاء العبيد من وجوه كثيرة ولاسيما فيما يخص بالصحة والغذاء والكساء أحسن حالاً من أولئك الأطفال والعمال المضطهدين في مصانع بريطانيا[٣٩].

وشهر أوين سلاح الحرب في مواجهة الملكية الخاصة، إذ أنه اعتبرها ركاز عدم المساواة السائدة بين الناس، وقد ورد في أحد مؤلفاته: كانت الملكية الخاصة ولا تزال، السبب في الجرائم التي ترتكب دوماً، وفي الفقر أيضاً. كما استطرد قائلاً في حنق: تجعل الملكية الخاصة عقل الفرد غريباً عن عالم الآخر، وهي سبب متجدد لقمع النشاط في المجتمع، بل هي سبب لا ينفك مصدراً للخداع والغش في معاملة الإنسان للإنسان ودافعاً للدعارة بين النساء. ولطالما اشعلت الملكية الخاصة نيران الحروب عبر القرون الماضية للتاريخ المعروف لنا وكانت دافعاً لكثير من قضايا القتل أيضاً.

ولذلك رأى أوين أن الواجب الرئيسي والحالة هذه هو القضاء على الملكية الخاصة، ذلك لأن الإنسانية ستستشعر بالطمأنينة تماماً عندما يصبح كل شيء - فيما عدا الأشياء الخصوصية للفرد - ملكاً مشاعاً للجماعة، لأنه سيكون لدى كل إنسان عندئذ ما يكفيه من كل شيء، وبعبارة أخرى سترقى الإنسانية إلى السعادة الحقيقية عندما تقيم دعائم الشيوعية(٤٠).

الاستنتاجات والتوصيات:

أولاً: الإستنتاجات:

نستنتج من هذه الدراسة ما يأتي:

١. إن اليوتوبيا عبر تاريخها تجلت في أشكال عديدة؛ اتخذت الطابع الديني أحياناً والطابع الفلسفي أحياناً أخرى، وصيغت في قوالب أدبية تارة وفي قوالب علمية باسم روايات الخيال العلمي تارة أخرى، ولكن القاسم المشترك بين جميع هذه اليوتوبيات هي أنها تمتاز بنمط من التنظيم الإجتماعي دون ملكية خاصة.
٢. تناهض اليوتوبيا الاقتصادية نظام الإستغلال والإضطهاد، وتعبر عن أمل الناس في حياة أفضل ومستقبل أرغد ومساواة وعدلٍ في حقوق الملكية، ولذلك دافعت عن فكرة الفلاحين التي تدعو إلى التوزيع المتساوي للثروة على الناس بعدِّها المثل الأعلى للعلاقات الإجتماعية.
٣. طيغيان فكرة الشيوعية على أفكار وآراء مفكري اليوتوبيا.

ثانياً: التوصيات:

إن تتحقق الرفاهية لجميع أفراد المجتمع وهي غاية الغايات، وان النظام الذي لا يسعى لتحقيق هذه الغاية لا يعتبراً نظاماً سليماً وصالحاً للإقتداء به، ولذلك نقترح ونقول أن الأفكار الرومانسية للاقتصاديين هي بمثابة طوق نجاة من الظلم والاستبداد والقهر الذي عاشته مجتمعاتهم؛ رغم مثاليتها واستحالة تطبيقها في الواقع، إلاّ أنها تبقى مسعاً للإنسانية نحو الكمال وتحقيق الفردوس الأرضي، أو كما يذكر أوسكار وايلد في كتابه (روح الإنسان في ظل الإشتراكية): ان خريطة للعالم لا تشمل مدينة فاضلة لن تستحق حتى مجرد النظر إليها، لأنها تغفل الدولة الوحيدة التي ترسو عليها الإنسانية دائماً، وعندما ترسو الإنسانية هناك ثم تتطلع فترى بلاداً أفضل فإنها تبحر إليها، ذلك أن التقدم هو تحقيق المدن الفاضلة.

الهوامش:

(١) ميكافللي، نيقولو، ٢٠٠٢م: الأمير، ترجمة: خيري حماد، الطبعة ٢٤، دار الآفاق الجديد- بيروت، ص٢٢١.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٢.
(٣) أفلاطون، ١٩٩٤م: المحاور الكاملة (الجمهورية)، المجلد الأول، ترجمة: شوقي داود تمراز، الأهلية للنشر والتوزيع- بيروت، ص٢٦٢.
(٤) أحمد، محمد وقيع الله، ٢٠١٠م: مدخل إلى الفلسفة السياسية- رؤية إسلامية، ط١، دار الفكر- دمشق، ص٦٣-٦٥.
(٥) أفلاطون، المصدر السابق، ص١٠٢.
(٦) المصدر نفسه، ص١٠٦.
(٧) شومبيتر، جوزيف أ.، ٢٠٠٥م، تاريخ التحليل الاقتصادي، ترجمة: حسن عبدالله بدر، المجلد الأول، المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة، ص١٠٥.
(٨) عبد الواحد، د. علي، بون تاريخ النشر: المدينة الفاضلة للفارابي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- مصر، ص٤٠.
(٩) عبد الفتاح، إمام، ٢٠٠٢م: الأخلاق والسياسة (دراسة في فلسفة الحكم)، المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة، ص٢٠٣.
(١٠) سعد، فاروق، ١٩٨٢م: مع الفارابي والمدن الفاضلة، ط١، دار الشروق- القاهرة، ص٦٠.

(١١) عاتي، د. ابراهيم، ١٩٩٣م: الإنسان في الفلسفة الإسلامية (نموذج الفارابي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، ص٢٥٣، ٦١.
(١٢) غالب، د. مصطفى، ١٩٩٨م: في سبيل موسوعة فلسفية (الفارابي)، منشورات دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر- بيروت، ص١٠٠، ٢٥٣.
(١٣) مور، توماس، ١٩٨٧م (١٥١٦م): يوتوبيا، ترجمة وتقديم: د. أنجيل بطرس سمعان، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، ص١٤- ١٥.
(١٤) رسل، برتراند، ١٩٧٧م: تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة: د. محمد فتحي الشنيطي، الكتاب الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، ص٤٦- ٤٧.
(١٥) مينابيف، ١٩٦٨م: الإشتراكية الخيالية، ترجمة: هنري رياض، دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت، ص٧.
(١٦) برنيري، ماريا لويزا، ١٩٩٧م: المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة: د. عطيات أبو السعود، عالم المعرفة- الكويت، ص١٢٧- ١٣٠.
(١٧) المصدر نفسه، ص١٣٠- ٢٧٦.
(١٨) محمود، الدكتور زكي نجيب، بدون تاريخ النشر: أرض الأحلام، شركة التوزيع المصرية– القاهرة، ص٨٠- ٩٧.
(١٩) هكسلي، أولدس، ٢٠٠٦م: العالم الطريف، تعريب: محمود محمود، دار المدى للثقافة والنشر- دمشق.
(٢٠) مينابيف، مصدر سابق، ص٣٩- ٤٠.
(٢١) شومبيتر، جوزيف أ.، مصدر سابق، ص٢٩٨- ٢٩٩.
(٢٢) شومبيتر، جوزيف أ.، ٢٠٠٥م، تاريخ التحليل الاقتصادي، ترجمة: حسن عبدالله بدر، المجلد الثاني، المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة، ص١١٢.
(٢٣) هيلبرونر، روبرت، ٢٠٠٢م (١٩٥٣م): قادة الفكر الاقتصادي، ترجمة: الدكتور راشد البراوى، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، ص١٣٣- ١٣٤.
(٢٤) عيسى، الدكتور طلعت، بدون تاريخ النشر، سان سيمون، ط٢، دار المعارف- القاهرة، ص١٩.
(٢٥) الكيالي، د. عبدالوهاب، بدون تاريخ النشر، موسوعة السياسة، ج٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ص١٠٩- ١١٠.
(٢٦) عيسى، الدكتور طلعت، مصدر سابق، ص٦٧.
(٢٧) ابو السعود، عطيات، ١٩٩٧م: الأمل واليوتوبيا في فلسفة إرنست بلوخ، منشأة المعارف- الاسكندرية، ص٤٠٦- ٤٠٧.
(٢٨) عيسى، الدكتور طلعت، مصدر سابق، ص٢٧- ٢٨.
(٢٩) مينابيف، مصدر سابق، ص٢٥.
(٣٠) بدوي، عبدالرحمن، ١٩٨٤م: موسوعة الفلسفة، ج٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ص١٩٨.
(٣١) هيلبرونر، مصدر سابق، ص١٣٧.
(٣٢) الكيالي، د. عبدالوهاب، بدون تاريخ النشر، موسوعة السياسة، ج٤، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ص٦٢٧- ٦٢٨.
(٣٣) مينابيف، مصدر سابق، ص٢٧- ٢٨.
(٣٤) هيلبرونر، مصدر سابق، ص١٣٨- ١٣٩.
(٣٥) بدوي، عبدالرحمن، مصدر سابق، ص٢٠٠.
(٣٦) هيلبرونر، روبرت، مصدر سابق، ص١٢٢- ١٢٣.
(٣٧) المصدر نفسه، ص١٢٤- ١٢٥.
(٣٨) المصدر نفسه، ص١٢٦- ١٢٧.
(٣٩) الكيالي، د. عبدالوهاب، بدون تاريخ النشر، موسوعة السياسة، ج١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ص٤١٧.
(٤٠) مينابيف، مصدر سابق، ص٣٤- ٣٥.

المصادر والمراجع:

١. ابو السعود، عطيات، ١٩٩٧م: الأمل واليوتوبيا في فلسفة إرنست بلوخ، منشأة المعارف، الاسكندرية.
٢. أحمد، محمد وقيع الله، ٢٠١٠م: مدخل إلى الفلسفة السياسية - رؤية إسلامية، ط١، دار الفكر، دمشق.
٣. أفلاطون، ١٩٩٤م: المحاور الكاملة (الجمهورية)، المجلد الأول، ترجمة: شوقي داود تمراز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت.
٤. بدوي، عبدالرحمن، ١٩٨٤م: موسوعة الفلسفة، ج٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
٥. برنيري، ماريا لويزا، ١٩٩٧م: المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة: د. عطيات أبو السعود، عالم المعرفة، الكويت.

٦. جيتـه، ٢٠٠٧م (١٨٠٨ج١، ١٨٣٢ج٢): فاوست، ترجمـة: د. عبـدالرحمن بـدوي، ط٢، دار المـدى للثقافـة والنشـر، دمشق.
٧. رسل، برتراند، ١٩٧٧م: تاريخ الفلسفة الغربيـة، ترجمـة: د. محمـد فتحـي الشـنيطي، الكتـاب الثالـث، الهيئـة المصـرية العامة للكتاب، القاهرة.
٨. سعد، فاروق، ١٩٨٢م: مع الفارابي والمدن الفاضلة، ط١، دار الشروق، القاهرة.
٩. شومبيتر، جوزيف أ.، ٢٠٠٥م، تاريخ التحليل الاقتصادي، ترجمة: حسن عبدالله بدر، المجلد الأول، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
١٠. شومبيتر، جوزيف أ.، ٢٠٠٥م، تاريخ التحليل الاقتصادي، ترجمة: حسن عبدالله بدر، المجلد الثاني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
١١. عاتي، ابراهيم، ١٩٩٣م: الإنسان في الفلسفة الإسلامية (نموذج الفارابي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
١٢. عبد الفتاح، إمام، ٢٠٠٢م: الأخلاق والسياسة (دراسة في فلسفة الحكم)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
١٣. عبد الواحد، د. علي، بون تاريخ النشر: المدينة الفاضلة للفارابي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر.
١٤. عيسى، طلعت، ١٩٨٧م: سان سيمون، ط٢، دار المعارف، القاهرة.
١٥. غالب، مصطفى، ١٩٩٨م: في سبيل موسوعة فلسفية (الفارابي)، منشورات دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت.
١٦. الكيالي، عبدالوهاب، بدون تاريخ النشر، موسوعة السياسة، ج١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
١٧. الكيالي، عبدالوهاب، بدون تاريخ النشر، موسوعة السياسة، ج٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
١٨. الكيالي، عبدالوهاب، بدون تاريخ النشر، موسوعة السياسة، ج٤، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
١٩. محمود، زكي نجيب، بدون تاريخ النشر: أرض الأحلام، شركة التوزيع المصرية، القاهرة.
٢٠. مور، توماس، ١٩٨٧م (١٥١٦م): يوتوبيا، ترجمة وتقديم: د. أنجيل بطرس سمعان، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
٢١. ميكافللي، نيقولو، ٢٠٠٢م: الأمير، ترجمة: خيري حماد، الطبعة ٢٤، دار الآفاق الجديد، بيروت.
٢٢. مينابيف، ١٩٦٨م: الإشتراكية الخيالية، ترجمة: هنري رياض، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
٢٣. هكسلي، أولدس، ٢٠٠٦م: العالم الطريف، تعريب: محمود محمود، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق.
٢٤. هيلبرونـر، روبـرت، ٢٠٠٢م (١٩٥٣م): قـادة الفكـر الاقتصـادي، ترجمـة: الـدكتور راشـد البـراوى، مكتبـة النهضـة المصرية، القاهرة.